الأدب العربي لدى قبائل الطّوارق في شمال جمهوريّة مالي خلال القرن العشرين الميلادي

ARABIC LITERATURE AMONG THE TUAREG TRIBES IN THE NORTH OF THE DURING THE TWENTIETH CENTURY AD REPUBLIC OF MALI

د. محمود قدوم د. محمد أبو بكر د. بسام حسن مهرة

Dr. Mohamadou Aboubacar MAIGA Dr. Mahmud KADDUM Dr. Bassam Hassan mohra

جامعة بارتن/ تركيا / الكلية الجامعية للعلوم التطبيقية بغزة

mkaddum@bartin.edu.tr

f.maiga85@gmail.com

Dr. bassam2015@hotmail.com

الملخّص:

يتناول هذا البحث الأدب العربي لدى قبائل الطّوارق في شمال جمهوريّة مالي خلال القرن العشرين الميلادي، ويهدف إلى التعرف على هذا الأدب، والكشف عن جمالياته التي تميزه بوصفه أدبا إفريقيا ماليا مكتوبا باللغة العربية، وله قيمة علمية تستحق الرصد والدراسة والتحليل، وقد تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي لملاءمته وموضوع البحث الحالي، وقد تم الوصول إلى العديد من النتائج كان من أهمها: أنّ جلّ شعر الطوارق نصوصهم الشعرية جاءت صورة صادقة عن أشعار العالم العربي، سواء أكان ذلك في نظام القصيدة من حيث المقدمة والصور البيانية والفظ والمعنى أم من حيث المضمون، وقد تبيّن أيضا من خلال هذا البحث كيف خلق شعراء الطوارق صور فنية شيقة تكشف لنا مدى قوة اهتمامهم باللغة العربية وأدبها، كما وتبيّن أنهم قد برعوا في توظيف

إمكانات اللّغة والاستفادة من طاقتها، حيث تتجلّى في أشعارهم جودة التّعبير، وبراعة التّصوير، كما أنهم كتبوا في كثير من الأغراض الشّعريّة المعروفة في الأدب العربي عبر عصوره.

الكلمات المفتاحية: الأدب الإفريقي العربي، الشعر، الطوارق، صحراء مالي، تحليل أسلوبي.

Abstract

This research deals with the Arabic literature of the Tuareg tribe in northern Mali during the twentieth century AD. It aims to identify this literature and reveal its aesthetics that distinguish it as a distinctive literature that stands out in Mali written in the Arabic language, and has a scientific value that is subject to monitoring, study and analysis. The descriptive analytical practice was used for its suitability to the current research topic.

Many results were reached, the most important of which was: that most of the Tuareg poetic texts need a true image of the slogan of the Arab world, whether it is in a basic system in terms of progress, profitability, comprehensiveness and meaning or in Terms of content, and this may also be indicated through this research. How did Tuareg poets create interesting artistic images? We called the extent of their interest in the Arabic language and its literature.

It was also shown that they excelled in employing the potential of the language and benefiting from its energy, as their poetry shows the quality of expression and the brilliance of imagery, and they also wrote in many of the poetic themes known in Arabic literature throughout its.

Keywords: Afro-Arabic Literature, Poetry, Tuareg, Mali Desert, Stylistic Analysis.

المقدمة

ظلّ الأدب المكتوب باللغة العربية في صحراء جمهورية مالي غرب إفريقيا مجهولا حتى الوقت الحاضر، سواء لدى سكان المنطقة نفسها أو لدى الشعوب العربية والإسلامية البعيدة عنها والقريبة. والواقع أن هذا الأدب مع بعده عن مناطق الشعر العربي الأصيل في الجزيرة العربية يستحق أكثر من مقالة. لكنه للأسف الشديد لم يحظ فيما صدر عن هذا البلد من بحوث ودراسات عربية باهتمام أدبي خاص من شأنه أن يكشف عن جمالياته التي تميزه بوصفه أدبا إفريقيا ماليا مكتوبا باللغة العربية، وله قيمة علمية تستحق الرصد والدراسة والتحليل. فالشعوب الساكنة في صحراء مالي من السنغاي والبربر أعني به قبائل الطوارق وغيرهم بعدما تكونت لديهم سليقة عربية وسجية أدبية أصبحوا يؤلفون في شتى الموضوعات الدينية واللغوية والأدبية بمستوى عالٍ. كما كانوا أيضا نماذج حيّة لغيرهم في كتابة الشعر باللغة العربية الفصيحة. إنّ النهضة الأدبية الحقيقية التي عرفتها منطقة شمال مالي إنما كانت في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على أيدي شعراء القبائل العربية الكبيرة من طوارق وأنصار وكنته، ومن تتلمذ على أيدهم. وفي القرن العشرين الميلادي نبغ شعراء كثيرون، وبرعوا في الأدب ومجالاته المتعددة على الرغم من أنّ الإنتاج الأدبي كان في بيئة أعجمية لا ينطق سكانها باللغة العربية ولا يتذوقون آدابها أصالة. ومع ذلك فإنّ ما تركوه من آثار أدبية تمثل جزءا مهما من الثقافة المحلية المكتوبة باللغة العربية. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الدراسة ترتكز على مجموعة من الشعراء الذين يمثلون الحركة الأدبية في هذه المنطقة. فمن بين القبائل القاطنة في الصحراء وكان لها إسهامات كبيرة في مجال الأدب والشعر قبائل الطوارق. فقد اهتمت هذه القبائل بالأدب بفنيه الشعر والنثر. أنتجت هذا الأدب المدارس الأدبية التي كانت منتشرة بكثرة في صحراء مالي. وهو إنتاج أدبي رائع؛ إذ جاء جلّه صورة صادقة عن آداب العالم العربي، سواء من حيث الشّكل أو من حيث المضمون.

منهج الدراسة:

ومن هذا المنطلق يسعى هذا البحث - من خلال إعمال المنهج الوصفي التحليلي إلى إلقاء الضوء على أدب هذه البيئة الثريّ في إنتاجه، والبليغ في معانيه، والرّاقي في أسلوبه، وعلى دور المدارس الطوارقية الأدبيّة في الحفاظ على العربيّة وعلومها من خلال إنتاجهم الأدبيّ الغزير، وذلك عن طريق تحليل بعض النّصوص الأدبيّة.

أهمية الدراسة:

وتكمن أهميّة هذا البحث كونه يسهم في التعريف بالتراث الإفريقي الأدبي المكتوب باللّغة العربيّة، وببعض الشعراء المبدعين من الطّوارق، ومدى إتقانهم للغة من خلال دراسة تطبيقية عن الشعر العربي الذي كتبوه.

أسئلة الدراسة:

أمّا الأسئلة التي يطرحها موضوع البحث فهي كالآتي:

١- هل لقبائل الطوارق إسهامات في الأدب العربي؟
٢- ما الأغراض الشّعرية الأكثر تناولا لديهم؟
٣- ما القيم الجماليّة والفنيّة الّتي تجسّدت في نصوصهم الأدبيّة، وما مواطن الإبداع فيها؟ وللإجابة عن هذه التّساؤلات تمّ تقسيم الموضوع إلى مبحثين.

المبحث الأول: يتناول التّعريف بقبائل الطّوارق، متطرقا إلى مظاهر اهتمامها بالأدب العربي.

المبحث الثاني: يعالج أهمّ الأغراض الشّعريّة المتناولة لديها، مع دراسة بعض القصائد من النّاحية الأسلوبيّة. والجدير بالذّكر أنّ شعراء الطّوارق لديهم ثروة أدبيّة قيّمة، وتراث فكريّ مليء بالصّور الفنيّة والجمالّية، إلى جانب تميّز هذه الثروة الأدبيّة بدّقة التّصوير ورصانة الأسلوب.

المبحث الأول:

١. قبائل الطّوارق ومظاهر اهتمامها بالأدب العربي

١,١. أصل قبائل الطوارق:

تشير مفردة الطوارق إلى قبائل البربر والبدو الرُحّل الذين يتحدثون لغة التماهق، وهم ذلك الشعب الأمازيغي العربي الملثم، الذي يقطن شمال مالي المعروف بـ"أزواد"، وجنوب الجزائر، والنيجر، ويوجد في ليبيا وبوركينا بنسبة أقل (آلوسي، ٢٠١٠م، صفحة٢٦). ولقد تفنن الرحالة والمستشرقون والمؤرخون في تسمية هذه القبائل؛ حيث أطلق بعضهم على الطوارق اسم "الرجال الزرق" بسبب ارتدائهم الملابس الزرقاء التي يستخدمون في صباغتها تقنية خاصة تؤدي لاصطباغ جلودهم باللون الأزرق. ويفضل الطوارق تسميتهم بـ(إيموهاغ) وهي تعني بالعربية " الرجال الشرفاء الأحرار" (الأنصاري والزق، ٢٠٠٦م، صفحة١٣).

ولقد اختلف المؤرخون قديما وحديثا في أصل قبائل الطوارق؛ هل هم من البربر؟ أم من العرب؟ أم من العجم؟، هل هم من السكان المحليين القدامى في المنطقة؟ أم هم لاجئون، مهاجرون من بلاد أخرى؟ وربما الشيء الذي أدى إلى تباين المؤرخين فيهم، هو تميز مجتمع الطوارق في حد ذاته، بخصائص وميزات عن غيره من

المجتمعات المعروفة الأخرى. وهذا التعقيد المذكور لم يمنع المؤرخين، من تقريب نسبهم وأصلهم، مستندين على كتابات تتناول أصل الشعوب وتاريخهم. يقول ابن خلدون عن الملثمين:

"هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثّمون المواطنون بالقفر وراء الرمال الصحراويّة بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أوّلها. فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذا عن العمران، واستئناسا بالانفراد، وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جوارا، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا، واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا. وتعدّدت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوقة فوتريكة فناوكا فزغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلّهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة" (ابن خلدون، ١٩٧١م، صفحة٣٧٠٦).

وهناك من ينسبهم إلى العرب، فيقولون إنهم من حِمْير جاؤوا إلى منطقة الشمال الإفريقي بعد خراب سدّ مأرب. ونجد الكثير من كبار السنّ من الطوارق في هذه المنطقة يحتفظ بشجرة نسبه في جيبه أو في صندوق متاعه، يريكها كلما دار الحديث عن أنساب الطوارق، فتراهم واصلين نسبهم بقريش أو برسول الله عليه السلام، أو بأبي بكر الصديق أو بعمر بن الخطاب، وبعضهم يرى أنه من سلالة عقبة بن نافع أو بعض الفاتحين المسلمين لشمال إفريقيا (القشاط، ١٩٩٤م، صفحة٢٣).

فمما لا شكّ فيه أن الطوارق الحاليين هم من أحفاد قبائل صنهاجة الملثمين لأنّهم يقطنون نفس مواطنهم كما حافظوا على اللثام ميزة لهم، وتاريخهم الشفوي يدعم ذلك، كما أنه بعد سقوط دولة المرابطين بقيت هذه القبائل مكانها، بل ربما اتجهت جنوبا أكثر (عبد الحميد، ١٩٩٥م، صفحة٤٤/٤). يقول شاعرهم:

قومٌ لهم شرفُ العلا من حِمْيَر وإن انْتَمُوا صنهاجةَ فَهُمُ همُ

لما حَوَوْا إحرازَ كلُّ فضيلة غَلبَ الحياءُ عليهم فَتَلَثَّمُوا (الأنصاري، صفحة٢٠)

ويقول ابن خفاجة الأندلسي في مدحهم:

تنميهم الدينا إلى صنهاجة والدين ينميهم إلى الأنصار

سادت يدُ العلياء في عرصاتهم أعلى منارا في أعزّ ديار (الجكني، ٢٠٠٤م، صفحة٥٣)

١,٢. مظاهر اهتمام الطوارق بالأدب العربي

اهتمت قبائل الطوارق بالأدب العربي بشقيه الشعر والنثر كبيرا؛ وذلك لأنّ الكثيرين منهم هم عرب في النسب والأصل. وقد يكون من الصعب إن لم يكن من المستحيل الإحاطة بكل جوانب موضوع أدب الصحراء وشعرائها في مقال واحد؛ فرجال الأدب، والشعر بشمال مالي كل واحد منهم يكفي لعدة محاضرات، أو أمسيات شعرية للتعرف على أساليب شعره، ونقاش مختلف أغراض إنتاجه الشعري.

فإنّ المدارس الأدبية الطارقية اهتمت بالأدب وتدوينه اهتماما لا يضارعه أيّ اهتمام، وتشربته نفوس روادها وقوادها. وكاد يطغى على كل فنّ ويزاحم كل تخصص. وصار جزءا لا يتجزأ من علومهم وحياتهم. وتحول إلى كعبة يطوف بساحها الجميع. فمن مظاهر اهتمامهم بالأدب العربي إنشاد الشعر والتغني به. قال أحد الشعراء من قبيلة السوك، وهو محمد إغلس بن محمد الإدريسي السوقي في ردّه على مَنْ يلومه على ممارسة معاطات السّجال الأدبي:

ماذا على منتدب إذا انتدب ندبا ولوعا بلطائف الأدب

همته فض خواتم النخب كم فض عن مختومها ختما وصب

وقطف اليانع غضا والرطب وهصر الأملود منها واقتضب

وغربل المنقول ملقى الريب مستصفيا ناصعه إبان شب

ومـاله في تالد ولا نشب من عائق مشوش ولا أرب

وكم طوى أعشاءه على السغب وذاك من تدآبه على الطلب

وكم مداد قد ألاق وكتب وكم يراع شجه وكم قصب

غنوا بها لدى المقاهي والطرب وليلة العرس إذا ما الطبل طب (السوقي، ٢٠١٠م، صفحة ٩٧)

فمن الملاحظ أنه لا تستثنى من ذلك طبقة من الطبقات، ولا فَرق في ذلك بين العلماء والزهاد والعباد وغيرهم، بل نجد عالما نحريرا يتفنن في إجادة صياغة الشعر، فيساعده خياله المحلق وعاطفته المطواعة. فيسمح له خياله بأسلوب شعري عذب، تتقاصر دونه قدراتُ الشعراء المشاهير. وتراه أحيانا لا يعبأ ببعض الأغراض الشعرية التي لا تتقاطع مع الشعور الإسلامي لديه، فيخوض في وصف الثغر والطرف والجيد والقدّ، ويسترسل في مثل هذه الأوصاف المغرية.

ومن مظاهر اهتمام قبائل الطوارق بالأدب العربي التفنن في أنواع النثر العربي قصصا ورواية وحكايات ونوادر ورسائل وأمثالا وحكما. ولكن لم تبلغ العناية بالنثر بمستوى الاهتمام بالشعر لدى الطوارق. ولم نجد لدى الطوارق قصصا شعبية مكتوبة أو حكايات مدوّنة أو نوادر مخطوطة، وإنما قصصهم تتواتر شفاها وحكاياتهم تُروى في ليالي السّمر، ونوادرهم تُقال في مجالس الحديث.

وأغلب قصص الطوارق عن الغارات القبلية، وضياع القوافل، وثارات الفرسان، وحكايات الجنّ والغول، وأخبار العشق ومكائد المرأة، وحكايات عن الصيد واقتناص الوحش (القشاط، ١٩٩٤م، صفحة٢٢٩).

المبحث الثاني:

أهمّ الأغراض الشّعريّة المتناولة لدى الطوارق

طرقت قبائل الطوارق في شمال مالي الأغراض التي طرقها الشعراء كغيرهم من الغزل، والمدح، والإخوانيات، والمديح، والرثاء، والفخر، والوصف، والتهاني، والزهديات وشعر التصوف، والسياسيات، والعتاب والشكوى، والهجاء وغيرها من الأغراض الشعرية التي عرفت في العالم العربي والإسلامي. ونسوق مجموعة من الأمثلة على بعض من هذه الأغراض على النحو الآتي:

١- الغزل

إنّ الغزل هو بوابة الشعر؛ حيث إنه ظلّ عبر تاريخ الشعر العربي هو المفتاح الذي يضعه الشاعر في قفل الشعر العربي لينفتح أمامه فضاء الشعر الرحب والخيال الخصب. فمن نماذج شعر الغزل لدى هذه القبائل قول الشاعر عبد القادر بن محمد الصالح الكنتي السوقي (ت.١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ضمن قصيدة إخوانية أرسلها إلى ابن عمه الشيخ الفتى بن محمد أحمد الكنتي:

ظبي أقام الحسن في أماته ما جازه إلا إلى عماته

فانشقت الأصداف أصداف البها عنه فضاع الدر بعد نشاته

ما إن ترى خمرا كخمر رضابه كلا ولا تمرا كتمر لثاته

سيان دري العقود وثغره في النظم لافي كل ماهياته

كالغصن قدا كالغزال تلفتا كالبرق في الظلماء في بسماته

السحر من كلماته والعود من نغماته والمسك من نفحاته

والقوس من نوناته والليل من حدقاته والحور من أخواته

يصميك قبل الرمي إلا أنـه بلحاظه يصميك لا بقناته

فاعجب له يدمي القلوب ولم يكن إدماؤه الأجساد من آفاته

يسطو على روحي على كلفي به روحي الفداء لروحه ولذاته

فصريع كاسات الغرام حياته كمماته ومماته كحياتـه (السوقي، ٢٠١٣م، صفحة ٩٨).

ويقول الأديب الشاعر الشيخ محمد الحاج بن محمد أحمد الأدرعي السوقي (ت. ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) في إحدى قصائده، من بحابيح الواحة الغزلية الطارقية التي أطلت علينا رائية، وهي من عيون الشعر وهي:

لمعناك في فكري ومغناك في صدري وسر هواك في الجوانح كالجمر

قضى لي قاضي الوجد أني متيم فللغرب إرسال الغروب إلى النحر

وللب تشتيت ولم يبق غيرما يميز بينها وبين مها القفـــر

على مثلها يبكي وإن ليم عاشق ولوكان قلبه أصم من الصخر

فليلات وصلها على الدهر فضلت كما فضلت عن شهرها ليلة القدر

وما الصبر إن حاولته بعد فرقتي لمربعها إلا أمر من الصبـر

مهاة لها جيد المهاة وحاجب كنون وفوق نونه غرة البد ر

وطرف سقيم كالسنان لعاشق له فتكات كالهزبرأبي أجـر

وفرع أثيث فاحم مترا سـل كأن الدجى تكسوه بردإلى الفجر

تبدت لنا يوم الوداع فأبرزت بنانا خضيبا من دم القلب والسَّحر

فقلت لها ماذا الخضاب الذي بها فقالت دم من عاشق لي في أسر

فقلت لها أنا العشوق دواءه لديك فقالت لي أداويه بالهجر

فقلت لها إذن فِديه فموته شهيد هوى أشهى إليه من الخمر

فقالت وهل أرضى من العشق ربية وما الغدر في دين الصبابة من دهر

فقلت لها متى اللقاء؟ فأعرضت دلا لا وقالت لا ولكن إلى الحشر (ظريف، ٢٠٠٣م، صفحة ١٢٧).

٢- المدح:

يعدّ المدح من أوسع ميادين الأغراض الشعرية، فقلما تجد شاعرا إلا وقد ضرب فيه بسهم، واتصل بالمدح بسبب سواء في المجال التكسبي، أو في المجالات الأخرى. والجدير بالذكر أنّ المدح عند شعراء وأدباء الطوارق لم يتحرر من قيود محاكاة القدماء من الشعراء، ولم يقدروا على أن يضربوا معاني المدح في قوالبهم الخاصة، وبالتالي لم تتبين شخصيتهم فيه، وظّلت الأوصاف والمعاني هي نفسها التي استُعْمِلَت في شعر الأولين. فمن نماذج المدح قول الأديب الشاعر المرتضى بن محمد الإدريسي السوقي في قصيدته الفائية التي ساجل بها محمد بن يوسف الإدريسي السوقي فقال:

نبهه بالضيفان إن عاجوا به فإذافعلت فشأنه والشارفا

كرم على كرم وحسبك بامرئ أن لا يجمم تالدا أو طارفا

آراءه بصر العقول وسعيه يذر الرجا المأمول نيلا آزفا

وإذا احتبى بين الأماثل خلته بدرا سوى أن لا يكون الكاشفا

فهو الذي أحيى الليالي ساهرا من خشية المولى فأصبح واقفا

أو راكعا أو ساجدا أو داعيا وخلال ذاك الدمع يجري ذارفا

الله يعلم للسيادة والنهى والحزم والفهم السليم مصارفا

أنبِأته فهِما فلما جئتـه صادفته البحر الخضم الراجفا

العالم الفطن الذكي العابد الورع التقي الفاطمي العارفا
(الحسنى، ٢٠٢٣، صفحة١٩٧).

ومن نماذج المدح ما قاله الشاعر إنباكوا بن أمية الأنصاري السوقي. قالها في الثناء على امرأة من الطوارق، قامت مقام الرجال في حسن الضيافة، وضربت في الكرم أروع الأمثال. يقول:

جرى من بنت أحمد (دوش) صنع تقاصر دونه همم الرجـال

أرت من نفسها عجبا عجابا يدل على المروءة والكمـال

أتينا حيها ليلا فقـالت حياة الحي في نحر الجمـال

فساقت ناقة عُشَرا وشدت قوائمها بأطراف الحبـال

فأنفذت المقاتل وهي ترنـو لمصرعها ولكن لا تبالــي

فما لبثت لنا أن قدمتـها بواد من وقود النار خــال

فتاة الركب في عجب وشكر لآيات جرت في ضيق حال

إذا ما شام برق المجد شخص تحمل ضاحكا بيض الجبال

وإن كرمت طباع المرء كادت صنائعه تعد من المحــال

وينظر روحه لحياة أخرى ويسخو بالمطافل والمتـال

فتلك خلائق منعت لبعض وتعطاهن ربات الحجـال

وتلك كريمة الأتواج (هتو) مجددة المكارم والمعـال (الإدريسي، صفحة٢٠٧).

٣- الهجاء:

ومن الأغراض الشعرية التي تناولها شعراء الطوراق في قصائهم الهجاء. وهو يختصّ بمعاني الذم والقدح والشتيمة في المجتمع. وهو نقيض المديح. فالمديح يذكر الفضائل والهجاء يذكر الرذائل. فمن أمثلة شعر الهجاء لدى الطوارق قصيدة للشاعر أحمد السالك التي يهجو فيها قبيلة كنته:

عجبا لفخرهم بكذب مقالهم من بعد هزمهم بمشهد محفل

نكصوا على أعقابهم تسعا لهم عند التلاقي والطحان الأوّل

أستاهم تدمى على أعقابهم لا يعطفون لذي الونى المتمهّل

وتراهم مثل النعام جوافلا ورئيسهم كالخاضب المستخفل (القشاط، ١٩٩٦، صفحة ١٠٤).

٤ – الرثاء :

أحد الأغراض الشعرية التي نبغ فيها شعراء الطوارق. وهو غرض يقوم على الثناء وذكر محاسن الممدوح. فمن نموذجه قصيدة للشاعر محمد بن إبراهيم الأرواني التي يرثي فيها شيخه ويذكر فيها شمائله من علم وأدب وعدل وبشاشة الوجه وحسن المعاملة، يقول فيها:

بكت عيني بدمع من صديد على متواضع ورع عفيف

يلاقي بالبشاشة من أتاه وفعل ملاطف ندب شريف

ويقبل إن به ضيف الم بخدّ ساطع حسن طريف

أرقت لحزن مهلكه بليل بُعيد الصبح في أسف كثيف

ولكن كيف يبقى بن خلق قلل الخير مع دهر عنيف (الدالي، ١٩٩٦م، صفحة٥٢).

ويقول محمد محمود الأرواني في رثاء بعض إخوانه:

الموت حكم الله في الأجناس لا بدّ للمخلوق من ذا الكأس

لم ينجُ منه والد لا لا ولا مولود في الناس ليس بناس

وأحقّ بالمرء كلاّ إلى ذوق الفنا ورحيلنا كلاّ إلى الأرماس

لكن فقد حفيد شيخي حامد أشجانه ضاقت بها أنفاسي (الدالي، ١٩٩٦م، صفحة٥٢).

٥- التوسل:

التوسل هو طلب الوساطة والدعاء بكل ما يعتقد بعلو شأنه عند الله لقضاء حاجة ما. وهو أحد الأغرض الشعرية التي طرقها شعراء الطوارق توسلا إلى الله الذي لا يمنّ على عباده إذا أعطاهم. فمن الشعراء الذي اشتهرت قصائدهم التوسلية الشاعر محمد أحمد بن الهادي التنبكتي في قصيدتيه الأولى مطلعها:

الله لي في شدّتى ورخائي وشفاعة الحبّ النبي رجائي

والثانية

أشكو إليك ولا أشكو إلى الناس فقري وذلي وتقصيري وإفلاسي

ومن الذين قرضوا في هذا الغرض الشاعر محمد بن أحمد بن موسى (ت. ١٩٨٥) في قصيدته الاستسقاء التي يقول فيها:

يا ربَّنا يا مَنْ إذا لم يُسْأَلِ يغضبْ وإنْ يُسألْ يُجِبْ للسُّؤَّلِ

ولكَمْ وكمْ أعطى عطاءً زائدًا عن حاجةٍ لمغفَّلٍ لم يَسأل

يا حيُّ يا قيُّومُ يا من فضلُه قد عمَّ ذا فضلٍ ومن لم يفضُل

يا فرْدُ يا صمدُ المجيبُ لمن دعا أنت القريب وأنت راحم من بُلي

إنّا – وإنّك عالِمٌ – قد مسَّنا من سوءِ ما نجنيه ضُرٌّ مُنْجل

فإليك نبْرأُ ربَّنا من حَوْلنا متوكِّلين عليك كلَّ توكُّل

وبِذَيْلِ لطفك قد تعلَّقْنا فهل إلا عليك معوَّل لمعوِّل

فانظرْ إلينا نظرةً تمحو بها آثامَنا فنكونَ خيرَ مُعسّل

واسكب علينا ماءَ وَدْقٍ واكفٍ مُحْيٍ لموتَى الجدْبِ جُودٍ مُسْبل (الحسنى، ٢٠٢٣م، صفحة ١١٢).

٦– الفخر:

الشعر العربي الطارقي من جمهورية مالي مليء بالفخر، ورغم كونه كذلك إلاّ أننا لم نطّلع على قصيدة مخصصة لفن الفخر كلها، بل يأتي في غالب الأحيان، مصحوبا بالمدح، أو الغزل. فمن شواهد غرض الفخر قول الشاعر محمود بن محمد الصالح في قصيدة له يذكر فيها بعض مفاخر قبيلة السوق:

سائلين عنا الذي يعرفنا في قرانا يوم تفسير الكتب

أبنو عدنان أو من عجم سيقولون هم هام العرب

بلداء الوقت أم نقاده سيقولون هم قام الأدب

إن يغب طالع مجد بيننا ذرفينا طالعات ترتقب

إلى قوله:

نحن في السراء أو في ضدها جمرة لا ينطفي منها اللهب

إن غضبنا أو تمادى ما بنا يغش هذا الكون آثار الغضب

أو رضينا فربيع ثالث قرة الأعين كشّافو النصب (الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢١٣).

٧- الوصف:

الوصف من الأغراض الشعرية التي تعصف بها دائما رياح التغيير والتجديد ولا بدع في ذلك؛ لأن كل هذه الأمور إنما هي تبع لنمط الحياة. إن الوصف تجاوز عند الشعراء الطارقيين الأسلوب الكلاسيكي القديم، فوصفوا بجانب الناقة السيارة والطائرة. ومن شواهد غرض الوصف في أدب الطوارق أبيات للشاعر المحمود في قصيدته يصف فيها طائرة أقلتهم من بلادهم لغرض أداء الحج فأثارت عاطفته، يقول فيها:

فنعم مزدحم العشاق جؤجؤها تفيده في سبحه خطارة النجب

ما تنقمون من الطيار إنّ له عندي محاسن تربو عن حصى الكثب

ظل ظليل كراس صفقت دعة نوم على لذة في مضجع رحب

واها له سمكا يعلو بأجنحة فوق السحائب أو طيرا بلا زغب

سبرتها فإذا صنع قد أتقنه ذو فطنة حاذق فما سوى القرب

شد المسامر سدد المنافذ عن تدقيق فكر فلم يفح سوى ثقب

كأنّ ألواحها من حسن ما التأمت لوح وتحسبها شقت من الهضب(الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢١٤).

٨- الدعاء والطلب:

الدعاء والتضرع إلى الله من الأغراض الشعرية التي يتفيأ الشاعر الطارقي ظلالها، خاصة عند نزول الأزمات. ولا ننسى أن المكتبة الأدبية الطارقية غنية جدا بهذا النوع من الشعر الاستغاثي الطلبي، ويوجد لديهم شعراء، عندهم مقدرة أدبية رائدة، سخَّروا موهبتهم الشعرية فيه. فمن شواهده قول الشاعر المحمود بن حماد:

بعزة الله باسم الله بالله أدعوك ربي ومن ندعو سوى الله

بك استجرنا رجاء أن تعافينا مما دها واعتمادنا على الله

شعارنا عند مس الضرحيث فجا رحماك رب البرايا رحمة الله

أني لعبد دعا الرحمن منزعجا أن لا تفوز مساعيه لدى الله

إلى قوله:

أنت العفو الكريم المشتغاث به في كلّ هول ألا فروا إلى الله

وأيقنوا بأمان منه عن عجل لا تيأسوا لا تملوا من دعا الله (محمد، ٢٠٢٠م، صفحة٢٢٨).

دراسة تحليلية أسلوبية:

١ – اللغة الشعرية:

كان للشعر العربي الذي قرضه الأدباء الطوارق نصيب من الدقة في اختيار الألفاظ الممثلة للمعنى أتمَّ تمثيل، ومن التأنَّق في صوغ العبارات المحكمة، وسشير إلى أهمّ السّمات الأساسية في الألفاظ:

- **الإيحاء والدقة في اختيار اللفظ**

بذل الشعراء الطوارق جهداً ملحوظا في اختيار الكلمة وما تعطيه من إيحاءات، تثير في النفس كمًّاً هائلاً من العواطف والخيالات، وسنذكر أمثلة للتدليل على ذلك منها ما يلي: قول الشاعر المحمود بن حماد:

واها له سمكا يعلو بأجنحة فوق السحائب أو طيرا بلا زغب (الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢١٤).

لقد وفق الشاعر في اختيار الألفاظ (يعلو بأجنحة) ليعبر عن وصف دقيق للطائرة؛ لأنها ثابتة الأجنحة، لولاها لما طارت الطائرات وارتفعت. فالأجنحة تساعد على عمليتي الإقلاع والهبوط.

وقول الشاعر الشاعر إنباكوا بن أمية الأنصاري:

فأنفذت المقاتل وهي ترنو لمصرعها ولكن لا تبالـي

فما لبثت لنا أن قدمتها بواد من وقود النار خـال

فتاه الركب في عجب وشكر لآيات جرت في ضيق حال (الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢٠٧).

تبدو دقة الشاعر في اختيار لفظة (أنفذت) ولفظة (قدمتها بواد). واللفظتان توحيان بمعانٍ نبيلة عديدة موجود في المرأة. لعلّ من أهمّها كمال المروءة، وحسن الضيافة واعتنائها بالضيوف وإطعامهم.

- **الألفاظ بين الجزالة والرقة**

ومن الظواهر البارزة في الشعر العربي لدى الآباء الطوارق تفاوتها بين السهولة والعذوبة، وبين الجزالة والقوة. ويبدو أن هذا التفاوت مردّه طبيعة الموضوع الشعري؛ إذ إنَّ لكل غرض شعري ما يلائمه من الألفاظ. فما يصلح للمديح قد لا يصلح للفخر، وما يستخدم في الرثاء لا يستخدم في الهجاء؛ وذلك لأنّ لكل معنى لفظا يليق به.

وفيما يلي بعض النماذج لأبيات اتسمت بالجزالة والقوة، من ذلك :قول الشاعر محمود بن محمد الصالح مفتخرا:

نحن في السراء أو في ضدها جمرة لا ينطفي منها اللهب

إن غضبنا أو تمادى ما بنا يغش هذا الكون آثار الغضب (الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢١٣).

فالبيت هنا قوي جزل، تضمن معاني القوة والعزة، وألفاظه تناسب المقام.

كما نجد قوة الألفاظ وجزالتها في قول الشاعر المحمود في وصف الطائرة:

شد المسامر سدد المنافذ عن تدقيق فكر فلم يفح سوى ثقب

كأنّ ألواحها من حسن ما التأمت لوح وتحسبها شقت من الهضب (الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢١٣).

أما سلالة الألفاظ ورقتها، فتبدو في قول الشاعر المرتضى:

كرم على كرم وحسبك بامرء أن لا يجمم تالدا أو طارفا (الحسنى، ٢٠٢٣م، صفحة١٩٧)

فألفاظ البيت سهلة مألوفة ، تفصح عن سجايا الممدوح بدون إغراق أو تكلف. تتجلى عذوبة الألفاظ في شعر محمد أحمد بن الهادي التنبكتي:

أشكو إليك ولا أشكو إلى الناس فقري وذلي وتقصيري وإفلاسي

ألفاظ البيت سهلة مألوفة، لا يشوب معناه شيء من الغرابة ولا يحتاج القارئ معه إلى الرجوع إلى معاجم اللغة.

٢ – الأسلوب:

سهولة الأساليب سمة جليّة في الشعر العربي لدى الطوارق، فلا يحتاج القارئ إلى إعمال الفكر لفهم المقصود منها، ولذلك سوف نتحدث عن أساليب التعبير الفنية القائمة على الظواهر العامة التي اصطبغ بها هذا الشعر، فمن تلك السمات الأسلوبية:

- **التكرار**

ومن ضروب التكرار التي يمكن ملاحظتها في أساليب الشعراء، قول الشاعر المحمود بن حمّاد في قصيدته الترحيبية لأحد أئمة المسجد الحرام لما زاد المنطقة:

إمامُ أئمّةٍ عدلٌ وفيٌّ هُمَامٌ سيدٌ طلْقُ اللسان

إمامٌ لا يَني في نشر علمٍ ورأْبِ ثأى المروءةِ كلَّ آن

إمامٌ أهلُ مكة سلَّموه وهمْ أهلُ الفطانة والبيان (المختار، ١٩٩٠م، صفحة٧٨).

لقد كرّر الشاعر لفظ (إمام) ليؤكد عظم مكانة الضيف الذي جاء زائرا له. وعلى شاكلته نجد الشاعر محمد أحمد الحسني في قصيدته عن الشعوذة يكرر فيها كلمة (أليس) أربع مرّات لتأكيد على جفاء وجهالة من يأتي الكهنة والمنجمين:

أليس من الجهالةِ سَعْيُ ساعٍ ليَشهدَ غائبًا ويَرَى مكانه؟

أليس من النذالة زَجْرُ طيرٍ ليعرفَ خائفٌ منها أمانَه؟

أليس من الحماقةِ طَرْقُ رملٍ ليُوحي أو يَشينَ به بَنانه

أليس من الضلال عكوفُ شخصٍ لتنجيمٍ يلوكُ به لِسانه؟ (محمد، ٢٠٢٠م، صفحة١٠٦).

- **التنوع بين الخبر والإنشاء**

لم يسر الشعر العري لدى قبائل الطوارق على أسلوب واحد يخلو من التنوع، وإنما انتهج أساليب مختلفة. حوت على الأسلوب الخبري بضروبه المتباينة، والأسلوب الإنشائي بصوره المتعددة. فمن الأساليب الخبرية الابتدائية قول الشاعر محمد بن إبراهيم الأرواني:

بكت عيني بدمع من صديد على متواضع ورع عفيف (الدالي، ١٩٩٦م، صفحة٥٢).

وكذلك قول الشاعر امباكوا بن أمية:

أتينا حيها ليلا فقالت حياة الحي في نحر الجمال (الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢٠٧).

كما لجأ الشعراء إلى تأكيد الأسلوب الخبري لإثبات أمر مستقر في قرارة نفس الشاعر. مثل قول الشاعر محمد بن أحمد بن موسى:

إنّا – وإنّك عالِمٌ – قد مسَّنا من سوءِ ما نجنيه ضُرٌّ مُنْجل (الحسنى، ٢٠٢٣م، صفحة١١٢)

فقد أتى التأكيد في الخبر بتكرار أداة التأكيد (إنّ) وأداة (قد) في بداية الشطر الأول من البيت. وهكذا يجد القارئ شيوعاً لأسلوب الخبر في نصوصهم، وذلك أمر طبيعي؛ لأن هذا الأسلوب جسَّد واقعهم الاجتماعي والأخلاقي فراحوا يعبّرون عنه بلا تكلُّف أو تصنُّع، في صورة مؤثرة، محفوفة بلفحات العاطفة الصادقة.

وكما تنوعت طرائق الشعراء في الأساليب الخبرية، تنوعت أيضاً في الأساليب الإنشائية، وذلك يعكس مهاراتهم الفنية وقدراتهم الإبداعية على التعبير عمَّا يكمن في أعماق شعورهم، فهذا أسد بن كرز يستعين بأسلوب الاستفهام، ليعبر عن موقفه من الشعوذة واستنكاره له، وذم من يقصد الكهنة والمنجمين، وذلك في قوله:

أليس من الحماقةِ طَرْقُ رملٍ ليُوحي أو يَشينَ به بَنانه

أليس من الضلال عكوفُ شخصٍ لتنجيمٍ يلوكُ به لِسانه؟ (محمد، ٢٠٢٠م، صفحة١٠٦).

وقد يلجأ الشاعر إلى أسلوب النداء لغرض التلطف وطلب الشفاعة كقول الشاعر محمد يوسف الحسني:

يا رسولَ الإله يا منشأ الدي نِ، ويا منشَأ التُّقى والإنابه

إنني بك لائذٌ فأجِرْني يومَ لا يملكُ الشقيُّ خطابه (محمد، ٢٠٢٠م، صفحة١١٧).

وقد يستخدم أسلوب الأمر بقصد الدعاء كقول الشاعر محمد بن أحمد بن موسى:

فإليك نبْرأُ ربَّنا من حَوْلنا متوكِّلين عليك كلَّ توكُّل

وبِذَيْلِ لطفك قد تعلَّقْنا فهل إلا عليك معوَّل لمعوِّل

فانظرْ إلينا نظرةً تمحو بها آثامَنا فنكونَ خيرَ مُعسّل (الحسنى، ٢٠٢٣م، صفحة١١٢)

٣- الصورة الشعرية:

الواقع أنّ الدّارس لهذا الشعر يلاحظ أن الشّعراء قد استعانوا في نقل مشاعرهم وأحاسيسهم الانفعالية بالصور البيانية من تشبيه، واستعارة، وكناية. إلاّ أنّ التشبيه هو أكثر هذه الصور البيانية دوراناً في قصائدهم، ونصوصهم. فبه أصبحت صورهم ذات رونق يفتن الناظر، ونغم يسحر السامع. وكانت صورهم مستلهمة من البيئة الصحراوية، ومرتبطة بذواتهم ومتصلة بحياتهم العامة، كقول الشاعر المحمود بن حماد في تشبيه الطائرة بطير دون ريش:

واها له سمكا يعلو بأجنحة فوق السحائب أو طيرا بلا زغب (الإدريسي، ٢٠١٠م، صفحة ٢١٤).

فمن الملاحظ أن التشبيه الوارد في الشطر الثاني من البيت هو تشبيه بليغ. ومن الأبيات التي جمعت بين فنَّي التشبيه والاستعارة قول الشاعر محمد قول الحاج بن محمد أحمد الأدرعي في غزليته:

مهاة لها جيد المهاة وحاجب كنون وفوق نونه غرة البدر

وطرف سقيم كالسنان لعاشق له فتكات كالهزبر أبي أجر (ظريف، ٢٠٠٣م، صفحة١٢٧).

فالبيتان غنيان بالصور البيانية، والشطر الأول منه يبدأ باستعارة فتشبيه، ويبدأ شطره الآخر بالتشبيه ثم الاستعارة، دون التصريح بوجه الشبه؛ فجيدها استعار له جيد المهاة في الطول، والجمال، والحاجب بالنون في التقوس، ثم شبه جبهتها بغرة البدر عن طريق الاستعارة التصريحية المجردة!

ثم دبج البيت الثاني بهذا التشبيه المركب التمثيلي، الرائع، فطرفها رغم سقمه! يشبه الرمح للعاشق، إذ يفتك به كفتك الأسد المدافع عن جرْوِه.

ومن صور الكنايات اللطيفة قول الشاعر أحمد السالك:

نكصوا على أعقابهم تعسًا لهم عند التلاقي والطحان الأوّل (القشاط، ١٩٩٦، صفحة ١٠٤).

فالشاعر كنى عن فرارهم خوفا من عدوّهم (نكصوا على أعقابهم)، وهو كناية عن صفة.

الخاتمة:

يبقى موضوع هذه الدراسة، مجالا مفتوحا للبحث، ولا يزال في بداياته حينما يتعلق الأمر بتراث شعب جمهورية مالي الأدبي والثقافة الصحراوية، وقد أفضت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج نلخصها في الآتي:

حاولنا إلقاء الضوء على جانب منسي من روافد الحضارة العربية الإسلامية في الصحراء الكبرى، والتنبيه بمساهمات قبائل الطوارق في الأدب العربي والإسلامي. تناولنا نصوصا أدبية تعطي نبذة تعريفية عن بيئة الطوارق الثقافية، وتركز الضوء على دور أدباء وشعراء الطوارق في دفع عجلة الفنون العربية والإسلامية إلى الأمام، وخاصة الأدب العربي. ومن أبرز النتائج التي توصّل إليها البحث، هي:

١- اتضح من خلال هذه الدراسة أنه لو أخضنا شعر الطوارق لميزان النقد شكلا ومضمونا فسنجد أنّ جلّ نصوصهم الشعرية جاءت صورة صادقة عن أشعار العالم العربي، سواء أكان ذلك في نظام القصيدة من حيث المقدمة والصور البيانية والفظ والمعنى أم من حيث المضمون.
٢- تبيّن أيضًا من خلال هذه الدراسة كيف خلق شعراء الطوارق صور فنية شيقة تكشف لنا مدى قوة اهتمامهم باللغة العربية وأدبها.
٣- يستخلص من هذه الدراسة أنّ المكتبة العربية تفتقر إلى دراسة كهذه تجمع شتات أشعار الطوارق، ويترجم لأدبائهم، فهم وإن كانت أشعارهم قليلة لكنها أشعار تصور لنا بيئة إسلامية لم تخدم من الباحثين العرب والمسلمين.

المراجع والمصادر

١. ابن خلدون، عبد الرحمن. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١م.

٢. أغ محمد، محمد. الشعر العربي عند الطوارق كل اسوك أنموذجا. الأردن: فضاءات للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.

٣. آلوسي، همام هاشم. الطوارق الشعب والقضية. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠١٠م.

٤. الأنصاري، عمر. الرجال الزرق، الطوارق الأسطورة والواقع. بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦م.

٥. الجكني، الشيخ عبد العزيز بن الشيخ. ثمرات الجنان في شعراء بني جاكان. دمشق: دار المحبة، بيروت، دار آية، ٢٠٠٤م.

٦. حامد، المختار. حياة موريتانيا (الحياة الثقافية). تونس: الدار العربية للكتاب ،١٩٩٠م.

٧. الحسنى، أحمد الشفيع. ديوان اللؤلؤ المنسوق في أشعار أهل السوق. غاو: مكتبة غاو، شعراء، ٢٠٢٣، ٤٥–١٩٧.

٨. الدالي، الهادي المبروك. من روائع أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء. بيروت: دار صنين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.

٩. السوقي، العتيق بن الشيخ، سعد الدين. الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين. غاو: مكتبة غاو، أعلام مدينة غاو، ٢٠١٣، ٢٨٩– ٤١٠.

١٠. السوقي، محمد أحمد الإدريسي. المدارس الأدبية في صحراء الطوارق. عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م.

١١. ظريف، محمد. الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين: من التأسيس إلى قيام المسيرة الخضراء. موريتانيا: منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، ٢٠٠٣م.

١٢. القشاط، محمد سعيد. صحراء العرب الكبرى. طرابلس: دار الرواد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

١٣. القشاط، محمد سعيد. نماذج من الشعر العربي في الصحراء. بيروت: شركة الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، 1996م.